



الشعر السوفياتي عبر نصف قرن

بقلم الدكتور ميساك سليمان

الروسي التعبير الاتم عن لواعج الانسان المتفتح على حقائق مصيرية قابلة . ولهذا كان لا بد للشاعر الكسندر بلوك ، وهو المعطى الشعري الاكبر في هذه المرحلة ، من ان يلج باب الرمزية ، ليلقي على الحياة نظرة واقعية مندفعة بفلالة من الجمالية المثالية . ولهذا كانت تتردد في شعره صور الزنزانة والسجن، والنوافذ المفلقة على ضجيج العالم . وفي راعته المسماة « روض البلابل » التي نشرها اثناء الحرب العالمية الاولى ، يصف الشاعر روضا عجيبا ، يقرب بحر تسوره جدران عالية، اما خريز الامواج، وانين الحياة ، فلا يصل منها شيء الى هذه الصومعة التي لا يرن فيها سوى صوت البلابل ، وتفوح من ارجائها رائحة ورد عطرة .

ولم يكن الروض السحري ما يتوق اليه الشاعر ، وانما مفادته هي التي كانت تأخذ بمجامع احساسه ، بدليل ان بطل القصيدة يفتح النافذة على مصراعها ، ويسمع هدير البحر يرتفع « ممزقا النوم المستحب » ، فيستيقظ على الحياة الفسحة ، راغبا في ان يكون رجلا بين الرجال . فتمزق اشواك الورد ثيابه محاولة ايقافه ، لكنها تعجز عن ثنيه عن بغيته . وعندما يركض نحو البحر ، يخيل اليه انه يخرج من سجن كبير .

ولم يكن بطل القصة الشعرية هذه، الكسندر بلوك وحسب ، وانما كان الشعب الروسي، والفن الروسي اندي تضطرم في نفسه رغبة ماردة في مفادرة روض المتارف الفردية ، والركض نحو معتك الحياة ، نحو الزعازع والعواصف الاجتماعية الشاقة فسي وجه التاريخ منعطفات جديدة .

وقد خيل يومذاك لبعض الدارسين الغربيين امثال مدام « سوفي لافيت » ان بلوك كان مفلقا على نفسه لا يرى ما يحيط به . ولكن الشاعر كان صريحا في التعبير عن منحاه اذ قال : « ليس ثمة قطعة بين ما هو شخصي وبين ما هو عام في الرؤية الشعرية » . ولهذا كان امينا على تقاليد الشعراء الثوريين

على صعيد الادب والشعر والموسيقى، والرسم، والنحت .

وما يهمنا في هذه الدراسة هو جذور الشعر الروسي الجديد ، التي تفتقت عنها تربة الابداع الفني المتمثلة بحركة الشعراء « الديسمبريين » الروس عام ١٨٢٥ مشيرة بطوعها الى عبقرية رمزية بوشكين ، وتيوتشيف ، ومن دار في فلكهما فيما بعد ، انتقلا الى مرحلة الزعازع الكبرى في تاريخ المجتمع الروسي ، ابتداء من اواخر القرن التاسع عشر ، حتى ثورة اكتوبر سنة ١٩١٧ والحق ، ان المرحلة القصيرة الممتدة بين مطلع القرن العشرين ، وبين حدوث الثورة الاشتراكية ، كانت مرحلة تفاعل ، وتردد ، وترقب معطاء ، لمعت فيها اسماء كبيرة ، جاءت ترسي في اعقاب الحدث العظيم، اسس الادب والشعر الروسي ، الذي اتحدث روافده الكثيرة في نهر الفن السوفياتي الكبير .

ففي تلك المرحلة ، كانت الرمزية الجو الوحيد الذي يفرغ اليه الشعراء الاحرار ، كلما رغبوا في التعبير عما فسي نفوسهم المضطربة من حقد دفين على السلطة القيصرية التي كانت يومذاك تسوق حرية السواد الاعظم من الناس بعصي العسف وسيطاط الطفيان .

كان الشاعر فلاديمير سولوفييف يومذاك (١٨٥٣ - ١٩٠٠) ينشر القصائد التي عدت بحق جذر الرمزية الروسية الحديثة . والى جانبه كان ثمة شعراء كبار امثال فاليري بربوزوف (١٨٧٣ - ١٩٢٤) واندي بللي (١٨٨٠ - ١٩٣٤) الذي كان له الفضل الكبير في نقل الرمزية الفرنسية الى الاوساط الثقافية الروسية . وقد وجد انتاج هؤلاء الشعراء قمته في الشاعر الكبير الكسندر بلوك ، امام الرمزية في الشعر الروسي الجديد .

لقد كانت الحياة في روسيا ، خلال مستهل القرن العشرين ، متلبدة الجو بالندر المستشرقة احدانا ماردة . وكان الشاعر

قبل التحدث عن الشعر السوفياتي المعاصر ، لا بد لنا من الالتفات لحظة الى الورا ، نلقي نظرة عجل على المنابع الاصليّة التي تفجرت منها فنون شعرية ، ونثرية ، وموسيقية كان لها في اوربا وفي العالم ، ذوي الاعصار المارد اندي ينفى الركود .

- ١ -

لقد بدأت جنور الشعر الروسي تتمدد خلال القرن الثالث عشر . وكان ما هو مكتوب منها يومذاك ، مقتصر على الاناشيد الدينية . اما الاغاني والاشعار الشفهية ، فقد كانت جد منتشرة في الطبقات الاجتماعية الروسية القديمة ، وفي بلاطات القياصرة . وكانت الفوارق بين ذلك الشعر المكتوب وبين ما يردد شفويا ، تحمل طابعا اقرب الى المهنة الخاصة منه الى الطابع الاجتماعي الذي خلق فيما بعد شروط العلمية والفني في الفنون الشعبية الروسية عامة .

وقد ظلت الحال بالنسبة للشعر على هذه الوتيرة ، حتى القرن السابع عشر ، الذي جاء المجتمع الروسي بالهزات الاجتماعية التي زلزلت اسس الحياة الروسية ، وقلقلت الحواجز الصلبة التي كانت قائمة بين مختلف طبقات المجتمع ، وفي الثقافة ايضا ، وخلعت ابواب البلد الكبير المفلقة ، وفتحتها على الثقافة الاوروبية لينفذ منها فولتير، وروسو، وشكسبير ، وغوته وغيرهم ...

لقد كانت هذه الهزات الاجتماعية ايدانا للتفتح الفني والثقافي الذي ازدهر في روسيا، خلال القرن الثامن عشر ، فاطلع شعراء ، وادباء ، ومفكرين كبارا ، امثال : ميخائيل لومونوسوف (١٧١١ - ١٧٦٥) والكسندر راديشيف (١٧٤٩ - ١٨٠٢) والكسندر بوشكين (١٧٩٩ - ١٨٢٧) وميخائيل ليرمنتوف (١٨١٤-١٨٤١) ونيقولا نيكراسوف (١٨٢١ - ١٨٧٧) وفلاديمير سولوفييف (١٨٥٣ - ١٩٠٠) وغيرهم ممن اصبحوا يشكلون اليوم التراث الكلاسيكي الروسي

الديمقراطيين الروس ، الذين كانوا يولون اشكال اشعارهم العناية نفسها التي يولونها للمواضيع . وقد اخذ يتحرر شيئا فشيئا من عزلته ، ليركب اجنحة الحياة ، منحدرًا الى الواقع بكل ما فيه من زلازل وعواصف . وشاهدنا قصيدته : « الاثنا عشر » التي تشكل اثرا شعريا تأمليا ، تمتزج فيه الموسيقى الشعرية بنغم الثورة الجديد .

وتوفي الكسندر بلوك عام ١٩٢١ . وقد عكست قصيدته هذه مرحلة سنوات الثورة الاشتراكية ، التي اطلق عليها الشاعر اسم : « مرحلة الهجوم والعاصفة » . ولكن « العاصفة » ليست كل شيء ، كما ان « الهجوم » ايضا ليس كل ما في الحياة من جوانب بناءة . صحيح ان ثورة اكتوبر سنة ١٩١٧ قضت بالموت على النظام القيصري القديم ، الا انها فتحت صفحة جديدة في تاريخ روسيا . فالاجتماع الجديد يتطلب عملا يوميا جاهدا . و « العاصفة » التي اشار اليها بلوك كانت تشير بدورها الى بدايات بناء ، وتطور في الاقتصاد الوطني ، والنضال ضد الامية ، ونشر الكتب ، ورفع مستوى العلوم ، ومساواة المرأة ، الخ... وكل هذه المسائل الملحة كانت بدورها تشن « الهجوم » الذي اشار اليه الشاعر ولم يوضحه ، وكانت بالتالي تقض مضاجع الشعراء الذين لم يالفوا مثل هذا التحول في الواقع وفي مداركهم الشعرية ، وقد خلق لهم مواضيع جديدة وحملهم على الفوص في غليانها ، ثم مد اليد الى مادها الخشنة حينما ، والناعمة حينما آخر ، نسج مزجها جميعا في عملية صياغة لبنة جديدة ، على نحو ما فعل الشاعر الكبير فلاديمير مايكوفسكي ، الذي كان يجاهر في القول بان « الاشعار والثورة متحدان في رأسه بتوافق تام » .

وهنا تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الشعر الروسي ، هي مرحلة الشخصية الفنية الواجحة خطر في وقت واحد ، خطس الاضمحلال من جراء حرب التدخل التي شنت على الدولة الاشتراكية الوليد ، وخطر البيروقراطية التي اوشكت ان تسود هذه الدولة ايضا . ولهذا كان الشعر في مازق يوجب بالضرورة وجود شاعر يوثق في مجابهة الخطرين معا ، فكان مايكوفسكي .

وفيما كان النقاد الغربيون يعتبرون الكسندر بلوك شاعرا رمزيا متشائما احيانا ، كانوا يعتبرون مايكوفسكي شاعر دعابة ، واثارة وتهريج .

والواقع ان مايكوفسكي كان شاعرا قبل كل شيء ، غنى الثورة الاشتراكية بشعر غنائي جديد الايقاع ، جديد الصورة ، جديد الجرس ، مستخدما قوالب خارقة الدلالة ، متجررة النغم ، تصفع الخيلة للوهلة الاولى . وقد حدد مايكوفسكي مهمة الشاعر الجديد



بقوله : « نحن ايضا واقعيون . ولكننا لسنا مشدودين الى الخضرة ، ومخاطمنا في التراب » . وهو في احدي قصائده يقول :

« اتعلمون

ان استخراج الراديوم

وكتابة قصيدة

سواء بسواء .

يكذب المرء سنة

ليحصل على غرام واحد من المعدن .

ومن اجل كلمة واحدة.

يقلب المرء

الف طن

من معدن الكلام » .

ويقول في قصيدة اخرى :

« هاتوا ، اذن ، بيتا من الشعر

يقوى على الاستمرار مئة عام

بيتا لا ينهب بددا

مثل استار الدخان

بيتا يرن

لكي يفترخ به قائله

امام الزمن

امام الجمهورية .

امام الحبيبة ! »

ولقد كانت لمايكوفسكي علاقة وثيقة بجماعة « المستقبليين » . وقد عانى من هذه المدرسة في مستهل حياته الشعرية . لكنه عشية الثورة الاشتراكية ، بدأ ينحرف عنهم ، ويعود الى منابع الشعر الروسي الاصيل التي تدفقت من صدور شعراء كبار امثال بوشكين ، ونيكراشوف الذي كان مايكوفسكي يعتبره « اله الحقد والالم » . وفي تلك الفترة بالذات نظم الشاعر قصيدته الشهيرتين : « حرب وسلم » و « اجيوا »

وعبر فيهما بأسلوبه الخاص عن احتجاجه الحاقد على تحويل العمال الى طعام للمدافع

لكي تملأ بالذهب جيوب الرأسماليين . ولم تظهر عبقرية مايكوفسكي جلية الا عقب الثورة الاشتراكية . وعندئذ راح الشاعر يسهم بشعره في بناء هذا العالم الجديد ، بكل ما في عبقريته الشعرية من عمق انساني ، وبكل طاقاته النقدية الجارحة ، مهاجما رتابة الحياة الجديدة ، ومحاوفا فهم الطبقات الكادحة افكار العالم الاشتراكي وجماليته الموعودة . وقد وفق كمجدد عبر تمكنه من تضمين شعره بصفااء كلي ودقة فائقة ، المحتوى التاريخي الجديد .

وكان مايكوفسكي مخصابا على رغم قصر عمره (توفي منتحرا في ١٤ نيسان ١٩٢٠) واعطى اثاره هي قصائده : « ١٥ مليون » نظمها عام ١٩٢٠ . وقصيدته « فلاديمير لينين » نظمها عام ١٩٢٤ . وقصيدته « خروشو » (جميل) ، نظمها عام ١٩٢٧ . وقصيدته « جوازي السوفياني » نظمها عام ١٩٢٩ . ومسرحيتان هما : « البق » و « الحمامات » ، وقد فصح فيهما لأول مرة في تاريخ الشعر الروسي ، روح الجورجوازية والبيروقراطية ، وبين كم هي ضارة راسب الماضي الاسود في نضال الشعب السوفياني من اجل مستقبل مشرق .

اما براعة مايكوفسكي في تطوير الانغام الشعرية ، فهي خارقة في تنسيقها التفاعيل والقوافي ، وهي بهذا عصية على الترجمة . وهذا ما يظهر في قصيدته « جوازي السوفياني » امودج من شعره (١) :

جوازي السوفياني لمايكوفسكي

« نهش الذئب

انهش

اخلاق مأمير الدواوين

واحترامي للتفويضات

اقل ما يكون .

اني الى الشيطان نفسه

ادفع دونما رافة

بكل قرطاس ذي تمفة حمراء

اما هنا ...

على مدى صيف طويل

من غرف وعربات

يقف المأمير باحتشام

يجمعون الجوازات

فاسلم انا

دفترتي الاحمر اللون

فارى ازاء صنف من الجوازات

شفاها نفرج باسمه

وازاء صنف اخر

تبدو علائم احتقار .

هم يتسلمون مثلا

(١) نقل هذه القصيدة الى العربية الاستاذ

رئيف خوري .

بأحترام،

من عربة نوم

جواز الاسد البريطاني

وتندرج عينا الفتى الطيب

توشكان ان تشبها الجزرة الصغيرة

ساعة

ينحنون الى اقصى ما يستطيع البشر انحناء

فيتسلمون

كانما يتناولون بخشيشا

جواز رجل اميركي .

وازاء الجواز البولوني

تترأرأ عيونهم تشجع صدورهم

بفدامة بوليسية بكماء

فدامة الفيلة

ويتساءلون : من اين هؤلاء ؟

وما هذه الاصطلاحات الجغرافية الجديدة ؟

ثم بدون ان يدبروا

رؤوسهم التي تشبه رؤوس المفلوف

وقد خباوا عواطفهم

في الطبقات التحتية

يتناولون بلا رارة

جوازات الاسوجيين

وبعض نروجيين ، شيوخ .

ثم على بفتة

كانما تخلعت احناكهم

يوشك هؤلاء الخواجات

ان يجأروا جئرا

هؤلاء الخواجات الرسميون انفسهم

يتناولون

جواز سفري ذي الجلد الحمر !

هاكم

كانه قنيلة

هاكم كانه قنفذ

كانه موسى مسنونة الحدين

هاكم كانه حبة خشخاشة

ضخمة طويلة

لها على الاقل

عشرون نابا

مشحونة سما !

فتلتهم عينا الحمال

ببريق ذي مفزى

(احمل لك امتعتك بلا مقابل

يا صديقي ...)

فينظر الدرك نظرة تحري

الى الحمال

وينظر الحمال الى الدرك .

ترى بأية غبطة

كان ذلك الدركي

يشتهي

لو يلقيني ويجلدني حتى اهتري

لانتي

امسك بيدي

جوازي السوفياتي الاحمر

لله المطرقة

يخوشه المنجل !

نهش الذئب

انهش

احلاق مآمير الدواوين

واحترامي للتفويضات

اقل ما يكون

اني الى الشيطان نفسه

ادفع دونما رافة

بكل قرطاس ذي تمفة حمراء

اما هذا ...

اني اخرج

من جيوب بنطلوني الواسعة

شيئا يساوي

شحنة لا تقدر بثمن

كما تعلمون

اقرأوا هذا

ولياكلكم الحسد

انا مواطن

الاتحاد السوفياتي الاشتراكي .

- ٢ -

وقد كانت لمحاولات ماياكوفسكي الجريئة

في عالم الايقاع والتجديد انعكاسات على

اكثرية الشعراء الذين عاصروا الشاعر ،

وظلعوا في اغفابه ، بحيث امكن القول بوجود

(المدرسة الماياكوفسكية) في الشعر

السوفياتي ، التي عملت على تجديد الشعر

من كل جمالية متفهرة ومن كل رتابة، وجاهدت

بالتالي ، لتوسيع حلقة المواضيع والمسائل

التي يعالجها الشعراء الى حسد تناولها

المواضيع الثرية ، ومعالجتها بلغة شعرية

متطورة التركيب النحوي والبنياني ، والطاقات

التعريفية .

وسواء اكان الشعراء السوفياتيون اليوم

من مدرسة ماياكوفسكي او من سواها، فحسب

الشاعر انه اعلن في وجوههم جميعا انه عدو

القمود والجمود والقبول بالامر الواقع

والاساليب التقليدية . فهو يقول :

(الشاعر عندنا

ياخذ الاحداث

ويروي الغامرة

تفعيلا من الماضي

والواجب يقضي بالغز الى امام

وبهمم كل القوالب) .

وهذا ما فعله ، فيما بعد ، بشكل او باخر،

شعراء كبار امثال سيرغي يسنين، ولوغوفسكي،

وتيخونوف ، وسوركوف ، واولغا برغولز ،

واوهنس شيراز ، وبوريس بسترناك ، وآنسا

اخامتوفا ، وقسطنطين سيهونوف ، وميكولا

باجان ، وطورسون زاده ، ورسول حمزانوف،

وكفور غلام ، وحيميد غلام ، وغريباتشيف ،

ومارشاك ، وريلسكي وسيلفا كابوتيكيان ،

والكسندر تفاردوفسكي ، وغيرهم ...

وقد تميزت المرحلة التي اعقبت مسوت

ماياكوفسكي ، وامتدت حتى اعلان الحرب

العالمية الثانية ، تميزت بالنضال الدائب من

اجل الملكة الثقافية والفنية فسي الشعر

السوفياتي . وذلك لان القارئ الذي كون

نفسيته وذوقه الفني ، وروضه على اشعار

بوشكين ، وليرمنتوف ، ويلوك، وماياكوفسكي،

ويسنين ، اصبح بسهولة يتبين الفوارق بين

الفن الابداعي الرائع ، وبين مخلفات الفن

المتفقر السائر على عجلات بدائية .

وصار العديد من الشعراء يتجنبون المواقف

الخشنة في الشعر ، ويتمدون عن المواضيع

الكبيرة التي تتطلب صب كل القوى الفكرية،

لكي يرن الشعر بصوت جهير، وبحيويةفاعلة .

وعمدوا الى الحوادث البسيطة يبرزونها

بالاساليب البلاغية الجافة . ولكن رغم هذا

الجفاف طلعت اثار شعرية غنائية الطابع

الملحمي ، تمس الحياة السوفياتية مسسا

ديناميا فتحرك فيها الخصب الهاجع . فراينا

فلاديمير لوغوفسكي ينشر مجموعاته الجديدة

ومنها : (اليك اوكرانيا) و (ارباب الذهب)

و (العرس) . ونشر سيمون تشيكوفاني عدة

مجموعات منها (قصائد جديدة) و (ازهار

الاور) . وانجى الكسندر بروكوفيفيف يفتي

الحب والطبيعة بمجموعته (انسياب المياه) .

واصدرت الشعارة مارغريتا اليفر ، ومكسيم

ريلسكي ، وانا اخامتوفا عدة دواوين شعرية .

واتجه فريق من الشعراء الشبان شطر

المعامل والارياض ، يصف الحياة الجديدة .

فحفلت الصحف السوفياتية بقصائد الشعراء:

ميخائيل بيلينكو ، وسازونوف ، وصامبد

فرعون ، وغريباتشيف ، وياشين ، وتفاردوفسكي .

وغيرهم . وغصت دور النشر بدواوين الكسندر

بيزمنسكي ، وتيخونوف ، وتشيباتشيف ،

ومارتينوف ، واولغا برغولز ، وسيمونوف .

وقد تميز انتاج هؤلاء الشعراء ، في مرحلة

البناء الجديد هذه ، باكبار اندور الذي يقوم

به العامل في المصنع ، والمزارع في

الكولخوزات . وهذا هو الشاعر ميخائيل

كازاكوف يختصر بقصيدة قصيرة بعنوان

(محادثة مع عالم) ، التجربة الشعرية

المعناة ، فيقول :

(لهات فاتر يهب من الحفول

والفجر عابق برائحة القمح

وصديقي ينطلق انطلاقا ظافرا

مرغما الطبيعة على الاستسلام

الم يثق به ميثسورين دائما ؟

الم يعلم الناس من اجله حب العلم ؟

كان القمح قد انتصب ناصحا

والكروم تكسو مراع الفابات

وصديقي ، محول الطبيعة ، يسير

جد فخور بعمله) .

وتشاء حتمية التاريخ ان تقطع حبل تطور الشعر السوفيائي على الوتيرة الإنفة الذكر. فتندلع الحرب العالمية الثانية ، فتلفي بالمجتمع السوفيائي في آتونها المستعر ، وتحمل الشعراء السوفيائيين على القيام بدورهم بوصفهم مسئولين اجتماعيا . ولهذا مسر الشعر السوفيائي بما تصح تسميته بشعر الحرب (١٩٢٩ - ١٩٤٥) . فكانت الصحف والمجلات السوفيائية تنشر الكثير من قصائد الكسبي سوركوف ، ونفاردوفسكي ، وتبخونوف ، وبسيمونوف ، وغيرهم . وقد أصبح الشاعر ساعتئذ ، كما وصفه الكسبي سوركوف ، « شاعر الخنادق » ، يقاسم الجندي شظف الحياة ، وخطورة الووفوف في خطوط النار . وهنا يكمن سر الطبع الملحمي انذي عاشه الشاعر ، فابعد في صياغته شعرا بهير عن خلجات نفس الجندي المقاتل ، والمرأة المناضلة ، والمجتمع المتطور المستشرف خطوط افاق جديدة مرعة العطاء .

ولقد كان شعر هذه الفترة الحاسمة ايضا ، دعوة للبطولة ، والموت ، والجلود ، والحب ، والحقد ، والواجب ، وانحرية . فكانت القصيدة بمثابة الرسالة الموجهة من شاعر الى مواطنيه ، تدعوهم الى الجواب المباشر . وقد خلقت الرغبة في تخليد ماتسر بعض الابطال ، وتمجيد آلام الوطن ، المجال لرواع شعريه ، فولاذية الرنين ، اخاذه الجرس ، تمثلها قصيدة « فاسيلي تيورنكين » لانكسندر تفاردوفسكي ، التي بعد بحق اهم حدث



الكسندر تفاردوفسكي

شعري في ما سمي بشعر الحرب . وتعد قصيدة « فاسيلي تيورنكين » التعبير الاثم عن الطابع الروسي من خلال نفسيته ومسلكه العام . وقد صور فيها الشعائر

شخصية الجندي المقاتل والمؤاسي في وقت واحد . فهو يقنم الخنادق وخطوط النار ، ويداعب الجنود ، ويحدثهم عن النصر الاكيد ، ويشاطرهم الاسبى والحزن على من مات من الرفاق ، والحنين الى المنازل والاحباب . وبمقدار ما كانت بطرسول الحرب ، كان « تيورنكين » يزداد اصرارا على متابعتها حتى النصر ، وتزداد نبرانه غنائية شفاقة نساب في كيان الجنود المقاتلين ، وتبعث فيهم الشجاعة والعزاء .

وفي ما بين اواخر الحرب العالمية الثانية ، وبين مرحلة تضسيد الجراح ، كسان على الشعر السوفيائي ان يعاني الكثير من (عبادة الشخصية) التي راحت تسوق رهطا من الشعراء والفنانين والادباء بعضا الكبح الباغية ، وتقيم للفن قوالب اصطناعية واقفا مكبلة باكثر من لجام .

ولم ينهض الشعر من كبوته الا عنسب انقشاع غيوم هذا الجو القاتم ، حيث اخذ الشعراء يبحثون بحرية عن مواضع جديدة ، ويفوضون في مجاهل النفس البشرية محاولين الكشف عن رغباتها وامالها . وهنا طلع ما تصح تسميته بالشعر الاجتماعي ، والوجداني المصري ، ممثلا ايضا بالرائسد الكبير الكسندر تفاردوفسكي ، الذي راح ينظم اشعارا يتحدث فيها عن الزمن والمستقبل . وتعد قصيدته : « بعيدا ، بعيدا جدا » الانموذج الامثل لهذه المرحلة التي فتحت امام الشاعر ابعادا جديدة ، فانبرى يقوم بسياحتين في المدى الشاسع ، وفي الزمن معا .

لعد ساح الشاعر في المدى الشاسع ، سياحة واقعية ، وساح في الزمن عبر تخيلانه وذكرياته ونوفه المستقبلي . وعلى ضجيج عجلات القطارات تنحصر المسافات ، ويمسر نفاردوفسكي بقصيدته « بعيدا ، بعيدا جدا » عن اجوائه النفسية ، شاملا المجتمع السوفيائي ، بحيث نجد عائم الفسيح مع ما فيه من مناقشات ونضارب اراء، وتوترات مسافرين ، وهمس عشاق ، وصياح سائفين في الدروب الموحلة يحيون جميعهم النهار الدائم الانسياب جيارا .

ولم يتوقف ركب الشعر السوفيائي عند هذه الافاق ، بل راح يعمق طابع الشخصية الايجابية في الشعر الغنائي الملحمي ، نسب بعدها الى افاق اخرى ، منها ما هو جديد كل الجدة ، ومنها ما له جنوره الضاربة عميقا في التراث الشعري الروسي العظيم . اما الجديد ، فهو الشعر الفلسفي ، وهو لعمرى ضرب من الشعر جد صعب ، وهو يذكر نعداها بتشكيكة من الحكم المتبادلة التي ستستخدم غالبا للتعبير عن هذه الافكار . ولكي لا يقع الشاعر الفيلسوف في حمأة التفاهة ، يتجه غالبا شطر حقول اخرى من الثقافة ، دون ان يتمكن دائما من الدفاع ضد

نايبرها . وقد ظهرت في هذا المجال قصائد ثرية تذكر بالنصوص الفلسفية الجامدة . وقد حاول بعض الشعراء ايضا ان يتدعوا ما سمي « بالشعر العلمي » .

الا ان هذا الضرب من الشعر اوجب بالضرورة على الشاعر ان يعمق ثقافته الاسبى الحد الذي تصح فيسه تسميته بالرجل الموسوعي . والا فما قيمة الشاعر الذي يود معالجة قضايا الزمن والمسدى ، والحياة ، والنظور ، اذا لم يكن على فسط معين من العلم والمعارف الاساسية ؟

ولكن برغم ما في هذا اللون الشعري من صعاب ، لمحت اسماء شعراء أكفاء ، يمكنوا من ان يلجوا هذا الباب مرفوعي الهام ، وفسي طبيعتهم : بافل انطوكولسكي ، واركاوي كوليشوف ، وافيني فينوكوروف .

ففي المقدمة الرائعة التي كتبها الشاعر انطولولسكي لديوانه المسمى « البعده الرابع » يشير الى الفارق العائم بين الفكرة الشعرية وبين المفهوم العلمي للزمن ، فيقول : « عندما يقول اناس « الزمن هو المال » فانهم يفرطون في تعظيم المال . ان كل ذهب العالم لا يساوي لحظة واحدة من امتداد حياة ... » . لكن الرياضيين يؤكدون شيئا اخر . فالزمن بالنسبة لهم هو نظام فياسي ومفهوم نسبي ، فلا هو بسحر ولا بقدر ، وانما هو شيء ما ، يمكن قياسه وفق حساب مقبول ارضيا ، وكونيا ، او أي حساب اخر » .

ويتعتبر انطوكولسكي ان اصناف الشعر هي مفاهيم الزمن بصفة كونها « فدرا » او « زمتا ممتدا عبر الانسان » ، بحيث يمكن للفارء ان يكشف في كل لحظة هذا المعنى البعيد المنال ، والفريد ، الذي يجعل من الابيات الشعرية شعرا حقا . وان هذا المعنى الواقعي للزمن يجب تفديره بم اعادة تفديره دائما ، لان وبيرة الزمن يمكن ان تكون سريعة او بطيئة ، فاسمية او رؤوما ، ساكنة او بطولية ...

ويضيف انطوكولسكي ايضا ، ان ليس بمقدور الشاعر ان يطرح هذه المسائل . واذا ما استطاع ان يربطها ربطا وبيقا بالانفعالات البشرية ، وادخالها في عالم البطل الداخلي ، يصبح بإمكاننا عندئذ نتحدث عن غنى المحتوى الغنائي في شعره الفلسفي .

اما اركاوي كوليشوف ، فهو مسن خلال كتابه المسمى « الكتاب الجديد » يحدثنا في قصيدته « على نصف مليون كيلومتر » ، عن الماضي والحاضر ، دون ان يحمل شعره الكثير من الرموز المعقدة والحداثة اللغوية واللفظية . وعوضا عن التفجع القلوب على فصر الوجود البشري ، وعلى بهجة الطفولة السني ذهبت بلا عودة ، وبدلا من الاعلانات التجريدية المشيرة الى مستقبل بدون غيوم مثلا ، وغير ذلك من الاصباغ الشعرية ، يقدم لوحة

مليئة بالامفكار الحية والجديدة ، حول المدى والزمن ، والسرعة ، بدون ان يجرد هذه الداميك الفنية الحديثة مما هو متصل بالحس البشري ازاء الطبيعة ، من مثل « تنبؤ البلبل » هذا النبي المهاجر » ، و « صوت الشياطة » و « دعوة الغابات القديمة » .

لقد احتفظ الشاعر بذاكرته التي اعادته الى ايام طفولته ، فاستطاع ، دونما تصنع ، ان يجمع جمال الطبيعة وحرارة المواطنف البشرية البسيطة بالمعطيات العلمية الراهنة التي يعرفها ويسمع بها عامة الناس اليوم . وحتى في مجال تحدته عن المرأة التسي يحبها ، لم يسه عن بال كوليشوف ان يقول : « نحن نعيش عيشة النقيضين ، مثل ع.م.م ونقيضه بين الكواكب » ، فهو اذن يحاول دائما استخراج نتائج شعرية ، وافكار جديدة عن العالم ، هي افكار علمية وفلسفية واجتماعية ، مدركة التحولات الكبرى التي حصلت وتحصل في المجتمع الكبير فيحسب ان وجود الانسان في الارض يمتد عبر اضعاف ما هو بالواقع ، فيقول : « القرن العشرون هو الذي يعد سني حياتي » و « الذرة التسي حررها قرنا المجنح » ، مؤكدا لنا ان التقاء الشعر بالعلم ممكن ، وان عظمة العلم انما هي عظمة الانسان ، وان الاكتشافات العلمية لا توسع عالم الناس الذهني وحسب ، وانما توسع ايضا عالمهم الشعري .

واما افيني فينوكوروف ، فقد اصدر عدة مجموعات شعرية تدور حول هذه القضايا الحديثة في الشعر ، ومنها « الكلمة » التي نشرت عام ١٩٦٢ ، و « الموسيقى » وهي عبارة عن شعر تطبيق حاول فيسه الشاعر الاستعاضة عن النغم بالمعاني الفلسفية العميقة .

وخلال مناقشة اعقبت نشر « الموسيقى » عرض فينوكوروف وجهة نظره فقال بان المجموعة هذه تشكل باكثريتها تجربة في حقل الشعر المتخلي عن الوزن والبحر . واذا ما كنت

اسميتها « موسيقى » برغم كون هذه الاشعار لا تمثل ايا من الخصائص الظاهرة في الموسيقى الشعرية ، فذلك لانني اردت ان اشير الى معناها الموسيقي الداخلي ، اذا جاز التعبير . غير ان هذه « الموسيقى » الداخلية ، يصعب تبيينها لانها تفرق في لجة الرمز البعيد الاغوار ، بحيث يخيل ان الشاعر مقتنع بازدواجية بطله ، الانسان . وهو يتساءل بلسان بطله عن « غلظه » المنظور ، القليل الاهمية ، والذي ليس بالحقيقة سوى « الرجل الثاني » ، « اما « الرجل الاول » فكيف اقدر على ادراكه في ذاتي ؟ » . وذلك لان « الرجل الاول » فيه تولد الموسيقى الداخلية للعواطف ، وموسيقى العلاقات العميقة التي تربط الانسان بالعالم الحسي الفسيح (١) .

ويتبين لنا مما تقدم ، ان الشعر الفلسفي من اصعب صروب الشعر . وانه من الطبيعي اذن ، ان تكون له خصائصه ومفاجاته المثيرة حيناً ، والمقوتة حيناً آخر ، وبخاصة تلك التي تتحدّر به الى جادة النثر التافه الذي لا يثبت للمعالجة النقدية الفنية الواعية .

- ٤ -

ومن الفنون الشعرية التي تفتحت في الشعر السوفياني الحديث ، شعر الغزل . لقد رقد هذا الشعر رقوداً خيل معه ان الغزل محرم في الاتحاد السوفياني ، او يكاد .

والحق ، ان المراحل الصعبة التي مر بها الاتحاد السوفياني منذ عام ١٩١٧ ، لم تفسح المجال رحيباً للشعراء لكي يصفحوا عن لواعج الحب والهيام في نفوسهم . حتى النساء الشاعرات في الفترة الممتدة بين ١٩٢٠ وبين ١٩٤٥ كن يشاطرن الشعراء الرجال الشعور الوطني ، وتنفق المواضيع المصيرية الكبرى . ولم يأخذ شعر الغزل سبيله بطلاقة الى

(١) اشار الى ذلك الكاتب ادولف اوربان في مقال بعنوان « نشاطية الانسان » .

صفحات المجلات والمصحف السوفيانية الا عقب عام ١٩٥٦ - عام المؤتمر العشرين - . وعندئذ رأينا هذا الشعر يسمى في الناس سميه الطبيعي ، حاملاً لواعج الحب للمرة التي تشكل نصف المجتمع ، وحاملاً في الوقت نفسه صوت المرأة التي رغبت عن ان تكون « امرأة لا غير » . ورأينا شاعرات شابات يقفن في اصف الشعري يجاهرن بالحب ، ينظمن للعواطف المشبوبة ، وفي طبيعتهن : بللا احمادولينا ، وبوناموريتس ، وريمسا كازاكوفا ، وتامارا جيرمونسكايا ، ولينسا كوستنكو ، و ...

اما شعراء الغزل الشبان ، فهم كثر ايضا ، ويجيء في طبيعتهم : افيني افوشنكو ، وفاسيلي فيدوروف ، وادوارداس ميرلايتس وغيرهم .

لقد اخذ نجم افوشنكو يستطع في نماء الشعر السوفياني عام ١٩٥٢ عندما نشر مجموعته الشعرية الاولى « رواد المستقبل » ثم اتبعها على التوالي بمجموعات عديدة منها « الثلجة الثالثة » و « وعد » و « قوس وقيشارة » و « قصائد السنوات المبعثرة » .

ولقد اثار قصائد افوشنكو الكثير من النقد والناقشات لما تميزت به من جرأة وتجديد . وغنائية تمس اوتار القلب ، وتعزف لحن حنين الجنس . ومن هذا سر شعبيتها في صفوف الجيل السوفياني الجديد الناهد الى الحياة بكل ما فيها من جمالات ومتعة . والى القارئ النموذج من شعره ، قصيده « الشجرة » :

« اكتسى الفصن بالشعر

على عصف الرياح

فقلت له :

رد لي هذا الشعر

اني اريده

اما المارة

فقد نظروا بنا دهشين .

وراحت الشجرة على عصف الرياح

تهز قصيدتها

سيمونوف



افتوشنكو



فلا داع للاصرار
فالانصرف اجدى
ولكن ، اعترف ، افلا تتذكر ؟
والله صحيح ...
ولكن ساكتب لك غدا
افتخسى ان تتخدد ؟
الشعر ليس على الفصن بشقيل
ولسوف اكتب ، صدقني ، لدن نشاء
اشعارا
لكل الاشجار .
لم ، يبقى ان نظل اصدفاء
وانا ، هل بمقدوري ان انساك ؟
طيلة العمر
وعلى مفارق الدروب
سناكون شجرة هنالك
تهز قصيدتها في وجه الرياح
وساتنسم
وساذهب»



مميز الايتيس

اما فاسيلي فيدوروف ، فقد تمكن بمشابرته
على النظم من ان يخلق عالما شعريا فريدا ،
قوامه الصور الخارفة الفريدة الطابع . وقد
نشر مجموعته الاولى عام ١٩٤٧ بعنوان « لقد
باعوا فينوس » ، فخلق فيها نماذج من المرأة
الروسية ، ثم ابعها بقصيدة « اباء صعب »
ومجموعة « ليست شمالا اكثر من القلب » .
وفي مجموعته المسماة « كتاب حب » وهي
ثمرة جهود سنين من الخلق الفني ، فتسح
الشاعر قلبه للقارئ مفصحا عما يكنه من حب
للجمال وللرأة . فلنسمعه في بعض مقطوعاته
الفنائية ، يناجي حبيبته ، قائلا في قصيدته
« القلوب » :
اذا ما عجزنا عن كسب القلوب البشرية
فلنحذر مضبة فعلتنا
ان العدو ليرصدها .
ان القلوب لمرتفات
لا تسلح للاعداء .
.....
فيا ايها المرأة
يا زهرة الدنيا
المطرودة من جنة عدن
ان الجنة لقائمة فيك

حب الكائنات ؟
حبه لها ... ،
هذه النومة التي
لا يمسه سوى القلب .
وتصبح كل حكمته ، حكمة المحب
متعلقة بفشة ضئيلة
ويخيط من ضياء .
.....
ونهرق الدماء
وتبكي الارامل
وما يهددنا من غيوم
انما هو اخطاء
ومأس كئيبة
ينبغي الا تكون .
اما الجواهر
فهو ان الحياة هكذا ...
حب الكائنات
« وحبها له ... » !
ولو انني كنت الها
لم اكن لافعل
سوى ان اخلق المرأة .
ولو انني كنت مثالا
لكنت حفرت تماثالا
في الصخور الشاهقة .
واذا ما كنت مولعا بالالوان
فسارسم المرأة
المرأة التي لم اعرفها
والتي لما تصيح زوجتي
.....
انني اجهل ما يجب ان اعمل
وانت يا جميلتي
تأخذين بمجامع لبي
ان نصوع نهديك ليهرنبي
وجمالهما الكامل
عبر ما لهما من حزم واستدارة
ليجتذب اللمس الرفيق .
ان الواحد منهما لمبتعد قليلا عن الاخر
كانه يحسده على جماله .
واني لاجهل ماذا افعل
واجهل ايضا السبب
الذي من اجله ، انحي

اني لااذكر
عن التوراة
فاقول : انا الخاطيء الكبير
ولست بالقديس بطرس
احب المفاتيح الثمينة
فانبع صاحب المفاتيح .
لقد اكتشف قانون الحب
وانت تفرينني به
لا بتفاحة ، فحذار ، شديدة الاخضرار
بل بتفاحتين ناضجتين
ان نفسي لفي سام
وثمة عطش محرق
يحرقني .. ايها المرأة
يا نعمة الحياة
اقنني ظمائي ، اني اتالم
وانني لن ارتوي !
وهذا مقطع من قصيدته « ايها » ، فهو
يقول :
الخلاصة ، الامر واضح :
الحياة جميلة
اليس روح الحياة

معذبو الارض

تأليف فرانتز فانون

طبعة جديدة

ترجمة الدكتور سامي الدروبي والدكتور جمال الاتاسي

منشورات دار الطليعة للطباعة والنشر ص.ب: ١٨١٣ بيروت

فتخط شغاي تارة على هذا
وتارة على ذلك .
.....
وتقولين لي ، فريسة التأثر
« لا تخدعني »
فاطميني
سأبقى امينا على عهدك .
ولكن ، كيف يا حبيبتي
استطيع ان ابوح
بان اجمل من في الدنيا
انت !!

...
وهذا هو الشاعر ادورداس ميزلانيس ،
الذي بدأ ينظم وهو في العاشرة من عمره .
وقد ظهرت اولى مجموعاته الشعرية عام
١٩٤٣ بعنوان « قصائد غنائية » ، ثم اصدر
مجموعة بعنوان « الانسان » و « الابد والحياة »
وغيرها .

وتعتبر مجموعته « الانسان » من اروع
ما صدر في الشعر السوفياتي المعاصر . فهي
ذات ابعاد رمزية غير فاقدة نبض الحياة
وقد حاول الشاعر ان يؤكد فيها بان قلب
الانسان المعاصر هو اشيء شبيء بالرادار
المترصّد مصادر الحركات باطلاق . ولهذا
وجب ان يكون ملحمي التطلع والمدارك ، يقف
على خط الارادة البشرية الكبرى ، يناضل من
اجل الحياة ، عبر تفتح على كل جمالاتها .
وقد تفتح الشاعر نفسه على كل هذه
الجوانب الوجودية العطاء ، فنظم الشعر
للاقمار الاصطناعية الساعية لكشف استار
الغيوب ، ونظم للربيع ، والارض ، والصبح ،
ونظم للمرأة ، لشفاها ، ولعينها ، وللحب



بروكوفيف

المتجدد نجدد الحياة ذاتها . والى القارئ
مقطع من قصيدته الرائعة « النساء » ، يقول:
هكذا انت ، في فرارة افكاري :
لازورد فدسي ..
شفافية ، وصفاء
وعبر شفافية الالوان العميقة
الدهشة الصفاء
تقفين ، واطياف الاحلام
تمخر بحر عينيك .
وتحملين الطفل بين يديك
لكي يرى الدرب الضارب في الغابة
عبر الضباب المشع
وعلى وجهك ثمة رفيقتان :
السعادة ، والطمأنينة

رفيقتا كل امرأة مستعدة لناالم
بانظار الكلمة التي
ينتم بها الطفل ...
ينابيعك اول ما ينابيعي
يا لباة المرأة ، الام
انها نهب الدنيا الطفوله
وهكذا في كل فجر
نقدم الشمس للدنيا
شعاعها الاول ،
طفل يوم على الارض جديد .
فالذي يستطيع ان يزن بكفه
حفنة غبار جد دقيق
لفادر ان يزن ثقل العالم بأسره .
وتنجسين من الوان «فايل»
وبكف واحدة بهيمين على التراب والبخار !
هكذا انت في فرارة افكاري !

...
تلكم هي المراحل الطويلة والشاقة التي
مر بها الشعر السوفياتي ، عبر نصف قرن ،
وانها لمراحل مخصاب ، كما رأينا ، برغم ما
تصدى لركب هذا الشعر من عقبات ، منها ما
هو حتمي ، ومنها ما فرضه ظرف طارئ مر
المذاق ، كالح الاثر .
واليوم ، بعدما انفتحت ابواب الادب
والفن السوفياتي على مصاريحها بوجه ازهار
الفنون المتفتحة في العديد من بقاع الدنيا ،
فان الفن السوفياتي باطلاق ، والشعر منه
على الاخص ، سيجد سبيل التفاعل العطاء
مع تيارات الشعر العالمي ، يؤثر فيها ويتأثر
بها ، عبر عملية خلق وابداع ، نعد ولا ريب ،
بأكبر العطاء واروعه .

بيروت ميشال سليمان

صدر حديثا :

الاضلاع التشريعية في البلدان العربية

للدكتور صبحي الحمصاني

القانون الدولي العربي للاستاذ محمود كامل

معالم الحياة العربية الجديدة (الطبعة الخامسة)
للدكتور منيف الرزاز

دار العلم للملايين ص.ب. : ١٠٨٥ - بيروت

اول كتاب من نوعه

الوسائل التعليمية

للاستاذين بشير الكلوب وسعود الجلاد

دار العلم للملايين

ص.ب. : ١٠٨٥ - بيروت